نهضة والتزامٌ... وبعضُ نزوة!

سهيل ادريس

لم تمكّني الدراسةُ الدينيّة التي دُفعتُ إليها في المرحلة الابتدائية من متابعة الدراسة المدنيّة التي يتلقّاها التلاميذُ في تلك المرحلة. فكان أنْ حُرمتُ من متابعة اللغة الأجنبية، وكانت هي اللغة الفرنسيّة التي حاولتُ أن أكتسبها بمجهودٍ خاصّ بذلتُه انطلاقاً من مبادئ أوّلية رفدتْها مطالعةُ كتبٍ فرنسيّةٍ كنتُ أقرأها في مكتبة المعهد الدينيّ الذي التحقتُ به.

والحق أنّ ذلك المجهود الخاصّ كان أضعفَ من أن يتيح لي التمكُّنَ من تلك اللّغة، لولا أني تداركتُ، أو حاولتُ أن أتدارك، النقصَ بحماسةٍ شبهِ محمومةٍ في «تعلّم» معجمٍ ثنائيٍّ حَرصتُ على مراجعته حتى الحفظ تقريباً. وهو ما جعلني أطمح إلى مغامرة تقوم على محاولةِ ترجمةِ روايةٍ فرنسيةٍ أحببتُها حتى العشق، هي رواية **مولن الكبير** Le Grand Meaulnes تأليف ألان ـ فورنيه.

وقد عانيتُ الكثير في ترجمة الصفحات الأولى من الرواية، ثم اكتشفتُ أنّ سبب المعاناة لم يكن لعجزٍ فيّ بقدرِ ما كان لعجزٍ في ذلك المعجم، وهو معجم **بُلو** Belot الذي كان يشكو نقصاً ذريعاً في إيراد المعاني؛ وهذا ما كشفْتُه في مراجعة المعاني التي يضمّها معجم **لاروس** ومعجم **روبير** الفرنسيّان. وحين فرغتُ من الترجمة، وكنتُ لم أتجاوز الخامسةَ عشرة، بعثتُ بنصّها إلى الدكتور طه حسين الذي كان يشرف على منشورات «الكاتب المصري». فأُبلغتُ بأنّ نشر الترجمة قد أُقِرّ، وأنها ستصدر في وقتٍ لاحق. ولكني قرأتُ بعد فترة أنّ مطابع «الكاتب المصري» قد احترقتْ واحتجبتِ المجلةُ وتوقفتْ منشوراتُها. وكنتُ ذات يوم في زيارة الدكتور طه حسين في منزله بـ «الرامتيْن»، ففاجأني بأنه كان يحتفظ بمخطوطة الرواية المترجمة، وسلّمني إياها، ولا أزال محتفظاً بها حتى اليوم.

أتراني قد احتفظتُ بها، بالرغم من أنّ الترجمة لم تَصدر[1]، لأني أعدُّها بمثابة «براءةٍ» وشهادةٍ من عميد الأدب العربيّ قد تدلّ على جدارتي بالترجمة عن اللغة الفرنسية؟

مهما يكن من أمر، فقد خلّفتِ الصعوباتُ التي عانيْتُها في ترجمة الرواية شعوراً عميقاً، وربما لاواعياً، بضرورة وضع معجمٍ يُفيد من نواقص معجم **بُلو**.

على أني مع ذلك لم أتردّد في قبول الإقدام على ترجمة بعض الكتب الصغيرة الحجم التي كلّفتني بها «دارُ العلم للملايين». ومنها على سبيل المثال: **ما يجب ألاّ يَجْهله كلُّ شاب، وما يجب ألاّ يَجْهله كلُّ زوج**، من سلسلةٍ لقيتْ رواجاً في تلك الفترة التي قضيتُها ـ بدافع من الحاجة الماديّة ـ في العمل الصحفيّ حين انتسبتُ الى جريدة **بيروت** والى مجلة **الصيّاد**، وكنتُ أترجم لهما أحياناً بعض نشرات الأنباء وبعضَ القصص القصيرة.

... إلى أن قرّرتُ وقفَ العمل في الصحافة والتوجّه إلى باريس للتحضير لشهادة الدكتوراه في الآداب واستكملتُ دراسة الفرنسية. وعدتُ الى بيروت حيث أنشأتُ مجلة الآداب عام ١٩٥٣.

الآداب والترجمة

في التخطيط الأوليّ للمجلة، لم يغب عنّي همُّ الترجمة. فقد كتبتُ في افتتاحيتها الأولى عام ١٩٥٣: «ستهتم [المجلة] اهتماماً شديداً بالآداب الأجنبية، فتعطي القارئ العربيّ صورةً واضحةً عن أحدث النتاج الغربيّ، عرضاً ودرساً ونقداً. وبذلك توفّر لقارئها ثقافةً عامةً مديدة الآفاق، ثم إنها ستتيح للأدباء والمفكرين العرب أن يتفاعل نتاجُهم بالنتاج الغربيّ، فيكتسب قوة وعمقاً، فيما هو يحتفظ بطابعه وخصائصه الذاتية[2].

١ ـ والحق أنّ رواية **مولن الكبير** قد نُشرتْ فيما بعد بعنوان **آفاق الصبا**، بترجمةٍ للشاعر اللبنانيّ يوسف غصوب.

٢ ـ «رسالة الآداب»، مجلة الآداب، العدد الأول ١٩٥٣، ص ٤.

والحق أنّ معظم أعداد الآداب، في سنواتها الأولى، كانت تنشر مقالاتٍ أو مسرحياتٍ أو دراساتٍ مترجَمة، وتقدّم ملخّصاتٍ وافيةً لأبحاث أو رواياتٍ أجنبية تُسهم في تعريف القارئ بثمرات الإبداع الأجنبيّ. وكان لها بابٌ شبهُ شهريٍّ بـ«النشاط الثقافيّ في الغرب».

على أنّ من اليسير على قارئ الآداب في سنواتها الأولى أن يلاحظ اهتمامنا الخاصّ بترجمة مقالاتٍ ودراساتٍ، وربما فصولٍ من كتبٍ، ذاتِ صلةٍ بالوضع السياسيّ في بعض البلدان العربية. وكنّا نختار من هذه الموادّ ما يدافع، بصورةٍ خاصّةٍ، عن مظاهر المقاومة والنضال والصراع من أجل الحريّة والاستقلال. وقد تَرجمنا فعلاً عدداً من مقالات سارتر وبعض الكتّاب الفرنسيين الآخرين المعنيّين بقضية الجزائر ونضال الجزائريين للتحرّر من الاستعمار الفرنسيّ. من ذلك مقالٌ لسارتر بعنوان «نظام الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر»[1]، ومقال آخر له بعنوان «مجنّدون يشهدون»[2]، وبضعُ مقالاتٍ جمعناها في كتابٍ بعنوان **عارُنا في الجزائر** وشاركتني في ترجمتها رفيقتي عايدة مطرجي إدريس، ومقال لكلود بورديه بعنوان «الخطف المجرم»[3]، وآخر لجان كو بعنوان «وثيقة بطولة»، ومقال لسارتر بعنوان «الجلاّدون» ترجمته عايدة[4]. ولا شك في أنّ موقف سارتر من قضية الجزائر هو الذي كان في أصل اهتمامنا بأدبه، وبالأدب الوجوديّ كلّه، وهو ما حدا بي إلى ترجمة ثلاثيته الضخمة **دروب الحرّية** عام ١٩٦٠ ومجموعةٍ من قصصه بعنوان **قصص سارتر**، وعدد من مسرحياته، ولا سيما **الأيدي القذرة وموتى بلا قبور والبغي الفاضلة**. وفي سياق اهتمامي بالقضية الجزائرية، ترجمتُ رواية **الطاعون** لألبير كامو... وإنْ كنت أعتقد الآن أنني حمّلتُ هذه الرواية، حين احتفلنا بحصول كامو على جائزة نوبل، أكثرَ مما تحتمل، أو ربما كنا قد أخطأنا في اعتبارها دفاعاً عن نضال الشعب الجزائري[5]. وقد كتبتُ بالفعل مقالاً بعنوان «كامو والتمزّق»[6] أتحدّث فيه عما كان يعانيه كامو بين أصله الجزائريّ وجنسيته الفرنسية من تمزّقٍ وبلبلةٍ.

في هذا السياق من الهمّ القومي الذي كنّا نغذّيه على صفحات الآداب وفي منشورات «دار الآداب»، تَوَسّعنا في ترجمة بعض الآثار بدوافع نهضويّة تزامنتْ مع تأليفي الروائيّ الذي تجلّى خاصّة في **الحيّ اللاتيني والخندق الغميق**، من غير أن يَحجب هذا الهمُّ التنويريُّ حسَّ النقد لدينا. وقد ظهر هذا الحسُّ في تعاملنا مع موقف سارتر من قضية «إسرائيل» حين زارها عام ١٩٦٧، فأحدثتْ زيارته لها إحباطاً لدى المثقفين العرب، كان من نتيجته أنْ أعلنتُ ندمي على ما ترجمتُهُ له من أعمال!

وقد كان موقفي هذا موقفاً متشنّجاً، أملتْه عليَّ ضروراتُ المرحلة الصراعية ضد العدو الصهيونيّ، وإلحاحاتُ القرّاء العرب[7]. وربّما كان عليّ أن أدرك في ذلك الزمن أنّ سارتر **هو** الذي تنكّرَ لمبادئه التحررية والنضالية بزيارته تلك، وبتعاطفه الإنسانويّ المزيّف مع ضحايا «المحرقة» (جلاّدي شعبٍ آخر هو الشعب الفلسطينيّ). كما أنّ موقفي المازوشيّ ذاك تنكّر للسنوات الطويلة التي قضيتُها في ترجمة سارتر، وللخدمة الكبيرة التي قدّمها فكرُ سارتر للثقافة العربية والعالمية ولا سيّما في حثّه على تلازم الحرية والمسؤولية في القرار الإنساني.

وقد ظللتُ فترة طويلة تكاد تبلغ عقديْن من السنين أمارس عمل الترجمة لإيماني بأهميّتها ودورها في مسعانا النهضويّ والتنويريّ. وتوسّعتُ في الترجمة عن اللغة الفرنسية، وكان مما ترجمتُ ما يلي: **السام والانتباه** لألبرتو مورافيا؛ **هيروشيما حبيبي** لمرغريت دوراس؛ **رؤوس الآخرين** لمارسيل ايميه؛ **الكلمات (سيرتي الذاتية)** لسارتر؛ **الموت حباً** لبيار دوشين؛ **العرّاب** لماريو پوزو؛ **ثمن الحرية** لايمانويل روبلس؛ **بستان الكرز** لتشيخوف؛ **الحقيقة ماتت** لروبلس؛ **الأفواه اللامجدية** لسيمون دو بوفوار؛ **البلور المحرق** لمورغان؛ **لوليتا** لنابوكوف[8]؛ **ستة أشخاص**

---

١ ـ الآداب، العدد السادس عام ١٩٥٦، ص ٣ ـ ٨، و٧٧ ـ ٧٩.

٢ ـ الآداب، العدد الثامن، آب ١٩٥٧، ص ٦ ـ ٩.

٣ ـ الآداب، العدد ١٢، عام ١٩٥٦، ص ٢٠ ـ ٢٢.

٤ ـ الآداب، العدد ٤، عام ١٩٥٨، ص ٣ ـ ٥ و ٧٧.

٥ ـ يذهب ادوارد سعيد الى أن كامو لم يكن مؤيّداً لنضال الشعب الجزائريّ من أجل استقلاله. ويقتبس كلاماً لكامو جاء فيه: «... لم يكن ثمة أمة جزائرية أبداً. وإنّ مِنْ حقّ اليهود والأتراك والإيطاليين والبربر أن يدّعوا لأنفسهم حقّ قيادة هذه الأمة الكامنة... إنّ فرنسيي الجزائر هم أيضاً، بأشدّ معاني الكلمة قوةً، أصلانيون. وعلاوةً، فإنّ جزائر عربيةً محضاً تعجز عن تحقيق ذلك الاستقلال الاقتصاديّ الذي لا يعدو الاستقلالُ السياسيُّ من دونه أن يكون وهماً...». راجع: إدوارد سعيد: **الثقافة والإمبريالية**، تر. كمال أبو ديب، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٧، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

٦ ـ الآداب العدد الثاني عام ١٩٦٠.

٧ ـ احتفظ إلى اليوم ببعض الرسائل التي حثّتني على إعلان «فعل الندامة» عن ترجماتي السارترية السابقة، قد أنشرها حين يئين الأوان.

٨ ـ صدرتِ الطبعةُ الأولى خاليةً من اسمي كمترجم. ولكني أثبتُّه في طبعتها الثانية وما بعدها. ومن الجليّ أنّي امتنعتُ عن ذكر اسمي في الطبعة الأولى خوفاً من أن اتّهم باللاأخلاقيّة و«الفجور»؛ وربّما ظننتُ أنني سأكون في غنًى عن مثال ذلك الاتهام بعدما نالني ما نالني من تجريح أوساط «المتدينين» عقب صدور **الحيّ اللاتيني والخندق الغميق**؛ غير أنني أكاد أجزم بأنني كنتُ «رجعيّاً» إلى حدٍّ ما، رغم إعجابي الشديد بالرواية. ولعلّ السطور التالية من مقالةٍ كتبتُها عام ١٩٥٦ بعنوان «أدبنا والترجمة» أن تدلّ على رجعيتي السابقة: «... ولعلّ مما يتّصل بذلك أن يُحَدَّد الاختيارُ [أي اختيار ما يجب أن يُترجم إلى العربية] من معدنٍ أصيلٍ يُعنى بالنزعة الإنسانية الرفيعة، ويبتعد عن الانسياق وراء السهولة والخلاعة وإثارة الغرائز الدُّنيئة في الفرد...»! (الآداب، العدد ٣، ١٩٥٦، ص ٥).

يبحثون عن مؤلف لپيرندللو؛ مذكرات بورجوازي صغير بين ناريْن وأربعة جدران لريجيس دوبريه؛ الثلج يشتعل لريجيس دوبريه أيضاً؛ من أكون في اعتقادكم؟ لروجيه غارودي؛ عشر قصص عالمية[1]؛ ثلاث روايات لاريك سيغال هي قصة حب وقصة اوليفر ورجل وامرأة وولد؛ حزن وجمال لكاواباتا.

خلّفت الصعوباتُ التي عانيتُها في ترجمة الرواية الأولى شعوراً عميقاً بضرورة وضع معجم «المنهل»

هذا، وقد شجّعتْ رفيقتي عايدة مطرجي إدريس على ترجمة عدد من المقالات التي نُشرتْ في الآداب، وعددٍ من الكتب التي صدرتْ عن «دار الآداب»[2]. كما نشرتِ الدارُ عدداً من الكتب المترجمة عن الفرنسية والإنكليزية والإيطالية وسواها. ولستُ أبالغ حين أقول إنّ «دار الآداب» نهضتْ بدور كبير في ترجمة بعض الآثار الأساسية، وعرّفت القرّاء العرب على آفاق واسعة من الأدب العالميّ، بما فيها الرواية اليابانية والألبانية والتشيكية الحديثة.

نظرتي إلى الترجمة «السليمة»

عام ١٩٥٦ كتبتُ رأيي في ما يجب أن تكون عليه الترجمة «السليمة». وأجد أنّ ما كتبتُه آنذاك ما زال يمثّل جوهر موقفي من الترجمة، على رغم مضيّ أكثر من ثلاثة وأربعين عاماً على كتابته. فاسمحوا لي أن أقتطف منه السطور التالية:

«...أما صميم العمل الترجميّ، فينقسم المترجمون العرب المحْدثون في مواجهته إلى الفئتيْن التقليديتيْن اللتيْن تعرفهما عمليةُ الترجمة. الأولى هي تلك التي تؤْثِر قراءةَ النصّ الأصليّ جملةً واحدةً، أو مقاطعَ مقاطعَ، ثم تَسْبك من معانيه النصَّ العربيَّ المناسبَ، بما يقارب النصَّ الأصليَّ روحاً أو يبتعد عنه، وفقاً لمقدرة المترجم ونفاذِهِ إلى أسرار اللغتين كلتيْهما. ونعتقد أنّ هذه طريقةٌ رديئةٌ بالإجمال، لأنها تُفقد الأصلَ خصائصَه المتميزة لتُكسب المنقولَ إليه خصائصَ الناقل الفكرية. والحق أنّ الناقل يوشك أن يخون الأصل فورَ تفكيره فيه وتعقُّلِهِ إياه على طريقته في التفكير والتعقل. إنّ هذا يُخضعه إلى التصرف بما ينسجم مع خطّ ذهنه والتعرض للاختلاف مع خط ذهن المؤلف الأجنبيّ. ونَذْكر هنا، على سبيل المثال، ترجماتِ مصطفى لطفي المنفلوطي وأحمد حسن الزيات. اما المنفلوطي فقد كان يجهل اللغة الأجنبية، وكان يصوغ المعاني التي تُروى له من الأصل الأجنبيّ صياغةً تَخْضع خضوعاً شديداً لخصائص التفكير والأسلوب العربيين. ومن أجل هذا جاءت ترجمتُه نموذجاً لما يسميه الفرنسيون «الترجمة الخيانة» traduction - trahison[3]. وأما الزيات، فقد كان يسمح لنفسه بأن يتصرف تصرفاتٍ غريبةً لا داعي لها إطلاقاً في بعض ترجماته، بالرغم من حرصه أحياناً على التقيد بالنص الأصلي[4].

وأما الفئة الثانية من المترجمين، فهي تلك التي تدعو إلى ترجمةٍ حرفيةٍ دقيقةٍ للأصل تتابعه في كلّ كلمةٍ وحرف. ونعتقد أنّ هذه هي ـ مبدئياً ـ ترجمةٌ عقيمة، لأنها تَعجز غالباً عن بلوغ الروعة التي تتمخض عنها اللغةُ الأصلية، تلك الروعة التي تشكّل لكل لغةٍ عبقريتَها الخاصّةَ. وفي البلاد العربية اليوم ترجماتٌ حرفيةٌ تبلغ حداً بعيداً من السقم والسخف، لأنّ المترجم نفسه يبدو فيها وكأنه غيرُ مدركٍ ما يترجِم!

ونحن لا نؤمن بطريقة واحدةٍ محددة القواعد والأصول للترجمة السليمة. فإنّ المترجم الصالح مدعوٌّ في رأينا إلى أن يتبع أساليب عديدة في الترجمة، وفقاً للنص الأصليّ الذي بين يديه، بل وفق أقسام مختلفة في نصٍّ واحدٍ بذاته. فخيرُ طريقةٍ أحياناً هي الترجمة الحرفية إذا كان النصُّ من الوضوح والبساطة بحيث يكون لكل كلمة مرادِفُها الدقيقُ في اللغة المنقول إليها، وبحيث تكون روحُ اللغة شفافةً واضحةَ المعالم. وقد تكون الترجمة المثلى هي التصرف في نصٍّ تموت الروحُ فيه إذا نُقل حرفاً بحرف ولم يراعَ فيه النسْغُ الذي يجول بين الكلمات ويشدّها بلُحمةٍ لا تنفصم. إنّ القضية، إذن، متوقفة على فهم روح النص قبل كل شيء، وعلى أن ننقل إلى القارئ هذا الروحَ بكليته وجزئياته، والمهم في هذا كله الا نجيز لأنفسنا تصرفاً او إسقاطاً أو زيادةً بدعوى أنّ ذلك مما تطلبه طبيعةُ اللغة العربية او طبيعةُ التفكير العربيّ. إنّ غايتنا الأولى هي الأمانة في نقل الأثر الأجنبيّ، وغايتنا الثانية تطويعُ اللغة والعقل العربييْن لأساليب جديدة في التعبير والتفكير[5]»...

قاموس «المنهل»

حين كنتُ أقوم بتدريس مادّة الترجمة والتعريب في الجامعتيْن اللبنانية والعربية كان طلاّبي يَشْكون من انعدام مرجعٍ معجميٍّ للترجمة، وهذا ما كان يزيدني قناعةً بضرورة وضع معجمٍ ثنائيٍّ يُيسِّر على الطلاّب أمورَ الترجمة. وهو ما عمدتُ إلى تنفيذه بمشاركة المرحوم الدكتور جبور عبد النور، فأصدرنا عام ١٩٧٠ معجم المنهل الفرنسيّ العربيّ الذي لقي إقبالاً كبيراً،

---

١ ـ فازت بالجوائز الأولى في مسابقة القصة العالمية التي أقامتها جريدة نيويورك هيرالد تريبيون وهي تمثّل أدبَ الجيل الجديد في ميدان القصة العالمية. وقد أشاد بحسن الاختيار وجمال الترجمة المرحوم وحيد النقاش (الآداب، العدد السابع، ١٩٥٤، ص ٣٧ ـ ٣٩).

٢ ـ وأهمّها الغريب لكامو والموت السعيد له أيضاً والبحّار الذي لفظه البحر لميشيما.

٣ ـ يَستشهد باحثٌ فرنسيٌّ غاب عني اسمُهُ بترجمة المنفلوطي لِـ پول وفرجيني على انّها مثالٌ للترجمة الخيانة.

٤ ـ اقرأ مثلاً ترجمته «لرفائيل» وبعض مقاطع من ترجمة «البحيرة» للامرْتين، ولاسيما ترجمته لعبارة "Et l'aurore va dissiper la nuit" بقوله «وبازي الصبح قد افترس غراب الليل»!

٥ ـ الآداب، العدد ٣، ١٩٥٦، ص ٢ ـ ٣.

ولاسيّما في أفريقيا الشمالية، وأسهم ومايزال في معركة التعريب في الجزائر خاصّةً. وقد سهرتُ على تطويره وتوسيعه، واستقللتُ به عن المؤلف الآخر الدكتور عبد النور وعن الناشر الآخر «دار العلم للملايين»، وأعتزّ بالغ الاعتزاز بأني قدّمتُ به أداةَ عملٍ ثمينةً للمترجمين العرب عن اللغة الفرنسية. وسيصدر قريباً شقيقُه **المنهل** العربيّ - الفرنسيّ الذي يستكمل به المترجمُ أداتَه الضرورية للعمل، وقد شاركني في بعض مادّته الشهيد الدكتور صبحي الصالح، وعمل كلٌّ من المرحوم الدكتور عفيف دمشقية، وزوجتي عايدة، والأستاذ جاك الأسود، والأستاذة عايدة الباشا على إضافة بعض المفردات والتعبيرات أو التدقيق بالمادة الفرنسيّة الموجودة. كما يعملُ د. سماح إدريس على التدقيق بالمداخل العربية وإضافة المعاني المستحدثة والألفاظ العامية المفصّحة أو المعرّبة.

خاتمة

في ختام هذه الشهادة، أتساءل: أتراني أخطأتُ في تخصيص معظم جهدي للترجمة، على حساب الإبداع الروائيّ المتمثّل في رواياتي الثلاث التي نوّه كثيرٌ من الدارسين والنقّاد بأهميتها؟

أعتقد أني صَدَرتُ، في جميع أعمالي الأدبية، تأليفاً وترجمةً ومَعْجمةً وإدارةَ مجلةٍ ودارِ نشرٍ، عن «مشروع» أزعم أنه مشروع نهضويٌّ بدأتُ بالتخطيط له قبل سفري إلى باريس في أواخر الأربعينيّات، ثم عملتُ على استكماله طوالَ نصف قرن. وأنا أعوّل تعويلاً كاملاً على ابني سماح ادريس لينهض بمشروع موازٍ له، بل لعلّه يفوقه أهميّةً، وهو جدير بذلك وقادرٌ عليه. ولا شك في أنه حين يُنجز معجمنا العربيّ **المنهل الكبير**، الذي شاركتُ في وضعه أنا وصبحي الصالح، فسيجعلني أغادر هذه الدنيا قريرَ العين...

بيروت

ندمي على ترجمة سارتر عقب زيارته «إسرائيل» موقف متشنّج أملته عليّ ضرورات المرحلة